

أثر القرآن الكريم في اللغة العربيّة

إنّ اللغة العربيّة كغيرها من لغات البشر خاضعة للتغيّر والتبدل وللزوال والفناء، وإنّ القرآن بحكم أنّه لسان الإسلام الناطق، ومعجزته الباقية هو الذي حفظها من الضياع؛ لأنّه جاء على وجه تحدى به العرب تحدياً صارخاً، فذلّوا واستكانوا. فحرص كلّ مسلم على ألفاظه احتفاظاً بالمعجزة، وتعبداً بتلاوته، ولو أنّه جاء كما جاء غيره من الكتب مجرّداً من الإعجاز لما كان حتماً على الناس أن يُلزموا أنفسهم تعهدها والتعرف إليها، بل كانوا يأخذون ما فيه ممّا يصلحهم في معاشهم ومعادهم بعد أن ينقلوه إلى لغاتهم، فتضطرّ العربيّة أن تقف وحدها في معترك الحياة، فلا تزال تتطلع إلى التجديد حتّى تصبح في مبدئها لغتين أو لغات متباينة أو تمشي إلى الموت وتدبّ إلى الفناء حتّى تصبح من التّاريخ.

ومن المعلوم لدى اللغويين والتّحويين أنّ ما في أيدينا الآن من مؤلّفات في اللغة العربيّة بكلّ فروعها وعلومها ما هو إلّا نتاج من نتاجات تأثير القرآن الكريم في العربيّة، فهو الذي كان الغاية المقدّمة في جمع العربيّة وتدوينها وضبط مفرداتها، والوقوف على معانيها، ودراسة تراكيبيها، وجمالها وتعابيرها، وفهم أسرار تنظيمها. وتذوّق حلاوة بلاغتها، فالتّحو العربيّ الذي يُعدّ أساس كلّ دراسة لغويّة، أو أدبيّة وُضِعَ ودُوّن ودُرِسَ ردّ فعل على اللّحن الذي هو الخطأ في استعمال اللغة، وهذا اللّحن كان ناقوس الخطر الذي دقّ في أذهان العرب؛ لأنّه يهدّد قرآنهم وسيبعتهم عنه حتّى ينسوه.

الناحيتين الوجدانية والإدراكية. ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره في نفسه، وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه من اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار، ومن الطبيعي أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عن غيره في مفرداته وأساليبه ومعانيه، وطريقة علاجه للحقائق.

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه (لغة الأدب) وهي التي تستخدم في الأدب: شعره ونثره، وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذها غيرها وسيلة تتخذها هي غاية، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية، ففي جميع الشعب الأخرى كلغة العلوم، ولغة الفلسفة، ولغة التاريخ، يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق، أما في هذه الشعبة (لغة الأدب)، يتخذ البيان غرضاً في ذاته يوجه إلى تجويده أكبر قسط من الجهود، فأهم ما يُقام له وزن في لغة الأدب هو جمال القول، ورقة الأسلوب، وحسن البيان، ورصانة اللفظ، وفصاحة الكلام، وبلاغة التعبير.

أسباب ظهور العامية

لقد كانت الفصحى في العصور كلها قريبة من فهم الجماهير مهما بلغت أميتهم، وكان الخطباء حينما يتحدثون بالفصحى إلى الناس يسهرون مشاعرهم ويحركون عواطفهم، وكان الأميون من الناس يتحشدون لسماع الخطب الفصيحة في المساجد والمحافل الدينية من دون أن يجدوا أدنى عقبة في فهم لغة الخطيب، وكذلك الشأن في أيامنا هذه، بيد أن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية، ظاهرة ازدواجية اللغة، وأشعلها مشكلة أراد أن يحرق بها ذلك الرباط المقدس (رباط الفصحى) الذي يشدّ العرب من المحيط إلى الخليج بأواصر التفاهم

الفصحى والعامية

كلّ أمة من الأمم تعرف مستوى من اللغة رفيعاً يستعمله أبناؤها في الشّعر والنثر، وصنوف الفكر ومجالات التأليف، ومستوى آخر اعتيادياً يستعمله السّواد من الناس في قضاء حاجاتهم، والتعبير عن أغراض حياتهم في البيت والسوق وما شابهها، فوجود مستويين أو ما يمكن أن نسميه (الثنائية اللغوية)، أو (الازدواجية اللغوية) أمر معروف في كلّ لغات العالم، وهو ظاهرة طبيعية عرفت لها لغتنا كما عرفت لها كلّ اللغات في كلّ عصر ومصر.

ولقد استعمل العرب لفظة (الفصحى) للتعبير عن المستوى الرفيع من العربية، أو الفصحى من لغتهم. كما استعملوا لفظة (العامية) للدلالة على ذلك المستوى من العربية الذي يستعمله عامة الناس في التعبير عن أغراضهم.

ويمكن تعريف الفصحى بأنّها " مستوى الاستعمال اللغوي الذي يلتزم بقواعد اللغة (الصوتية، والصرفية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية)، ويجيد التفنن في التعبير عن المعاني بأساليب بلاغية جميلة تؤثر في السامع ".

أما العامية: فهي الوجه الآخر للاستعمال اللغوي الذي ينحرف عن هذه القواعد، ولا يتقيّد بها تماماً، كما أنّ الفنّ البلاغيّ فيه ليس واضحاً كما في الفصحى، وتكاد تمثل العامية لغة الحادثة اليومية في حين تمثل الفصحى لغة الكتابة الرسمية. وكما تشعّب لغة الحادثة إلى لهجات مختلفة؛ تبعاً لاختلاف الأقاليم، وما يحيط بكلّ إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص تشعّب كذلك لغة الكتابة، أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها وما يمتاز به كلّ فنّ منها كالشّعر، والنثر الأدبي، والخطابة، والقصة، والتأريخ، والقانون، وتدوين العلوم الأخرى، لأنّ كلّ من هذه الفنون الكتابية يختلف عمّا سواه في طبيعته وأغراضه البنائية، ومناهج الاستدلال فيه، ومقدار صلته بكلّ من